تحدِّيات النصّ... هواجسُ المترجم

زياد العودة

مترجم، عضو اتحاد الكتاب العرب، من أعماله: «أسطورة أوديب»، «أسطورة دون جوان »،«أعمال فيكتور هيغو الروائية».

بين المترجم والنصّ قصَّة مجابهة أو حوار، إذا شئنا التلطيف. فهل يمكن لنا أن نرصد تعرُّجات هذه القصَّة أو بعضاً منها، متوسّلين نوعاً من الغوص في تجربتنا الخاصَّة، أو في تجارب أخرى قرأنا عنها أو استوحيناها، ولربَّما ناقشناها وأثرنا عصفاً فكريّاً حولها؟ على كلِّ حال، سيكون انطلاقنا من النصّ الذي نواجهه وليس من التجريد الفكريّ الذي يأتي باستنتاجات لاحقة.

أمام هذه العلامات المتباينة، والمتعاقبة خطيّاً أمام العينين، التي نُدعى إلى فكِّ رموزها، وفهمها ثانياً، وفي قصدنا نقل هذا الفهم، تخوّف يكبر أو يصغر، في أثناء مرور البصر عليها، من ألَّا تترك دلالةً دقيقة نلتقطها، وتسلسلا ًمعيّناً يغرينا بالمتابعة، أو يدفعنا إلى الإحجام دفعاً، مرجئين هذه المواجهة المباشرة إلى وقت آخر، ربَّما يسعد الحظّ أو الجوّ أو صفاء الذهن في لحظات معيَّنة لتخطّي ضعف التماسك، ليس في النصِّ بل في إدراكه على حقيقته.

إذا دعينا ثانية إلى هذه الوليمة التي يُطلب فيها إعمال الفكر والخيال والذاكرة معاً نتمهَّل، نحاول إيجاد العلاقات، والإشارات إلى ما وراء العلامات. النصُّ يحيل إلى غيره خارجاً عنه ولكنَّه مرتبط به، أمَّا الكشف فيتجلَّى في المعرفة، في الفهم، في إدراك القصد... ولكنَّ هذا ليس كلّ ما في الأمر، فهو نصف الطريق، ربَّما الاستشارات التي يقوم بها المترجم بشكل متواتر تندرج ضمن طائفتين تشكّلان أدوات العمل المرئيَّة؛ فأولاهما هي المعاجم الأحاديَّة اللُّغة، ولاسيَّما الكبرى منها إذا توافرت. ولا بدَّ من الرجوع إليها باستمرار؛ فالمترجم الذي لا يقدر على استخدامها لا يعرف اللُّغة التي يعدُّ كلّ واحد من هذه المعاجم فهرساً موثوقاً لها. والمترجم الذي لا يستشيرها ليس أكثر من مراهق يسفسف عمله ولا يتقنه.

وهكذا يجد المترجم نفسه، بالنسبة للترجمة عن الفرنسيَّة، أمام معجم كبير الأهميَّة، هو على سبيل المثال معجم (لاروس) للقرن العشرين الذي يقع في ستة أجزاء، ومعجم (ليتريه) و(روبير) وغيرها...

إنَّ الأمثلة التي توردها هذه الأنواع من المعاجم مستمدَّة من كتابات المؤلّفين الكبار، فهم وحدهم يعرفون ويعلّمون بحقّ شبه مطلق، ويعدّون حجّة يُعتدّ بها، والمترجم

خصوصاً. إنَّ هذه المعاجم تفسح في المجال لما يقوله أفضل كتَّاب اللغة، ومنهم (موليير)، (مونتيسكيو)، و(شاتوبريان) و(هيغو) وغيرهم...

إلى جانب هذه المعاجم نجد المعاجم الثنائيَّة اللغة، التي يعدّها (فاليري لاربو) عبيداً للمعاجم الأولى، أو عبيداً قد أُعتقوا، فأخذوا يقومون بدور حُجَّاب أو مترجمين شفويين. كما نجد كتب النحو وقواعد اللغة التي لا بدَّ من توافرها.

ومع تقديرنا لآراء (لاربو)، فإنَّنا نجدها لا تخلو من التعسُّف؛ فالمعاجم الثنائيَّة اللّغة تنيرنا حول ما يغيب عن ذهننا، وتنعش ذاكرتنا في أحيان كثيرة لإيجاد الترجمة المعادلة المناسبة. وهذا موضوع يصعب الخوض فيه الآن ويستحقُّ بحثاً آخر مستفيضاً ومتأنّياً، والخلاصة أنَّ هذه الاستشارات ضروريَّة جدّاً، والحالة هذه، وهي ما يفعله ذلك المترجمُ المتوحّدُ خلف منضدته ونظّارته، ولكنَّ الكلمة الفصل لا تكون على الدوام لحصيلة هذا البحث الدؤوب والصبور، بأعطافِ المعاجمِ، بل لذلك المعجمِ الكامنِ في زوايا الذاكرة، الذي لا يُتاح لنا أن نتصفَّحه كما نشاء، وفي أيِّ وقت... إنَّه لا يستجيبُ لنا دوماً، ولا بدَّ من تفريق العملِ، وترك الزَّمن يفعل فعلهُ، والانتظار؛ فربَّما يأتي الاختمار بالكلمةِ المنشودةِ.

يُقال: وزنة نعثر عليها لوزنة من النصّ الأصل، التحدّي الماثل، فكيف تكون الوزنة، وكيف يكون المعيار؟

على قدر الإمكان، يكون تعداد الوحدات اللغويَّة متقارباً، فلا نترجم كلمة بجملة، ولا جملة بكلمة، إلَّا في حالة خاصّة، يكون فيها الإفهام والإيضاح أساساً، ويدفع بالتعادل الوزنيّ إلى الدرجة الثانية.

تمرُّ الاختيارات شريطاً خطيّاً ولكنَّه قابل للرجوع مرّاتٍ ومرّاتٍ، وفي كلّ محاولةِ بحث عن هذا التوازن بين النصّ الثابت أو المنتهي والنصّ الذي هو قيد البناء، وفيه هدم، وتبديل، وتعديل، وإعادة بناء إلى أن يأتي المعادل وكأنَّه لقية من اللقى، بعد استكشاف يطول أو يقصر، مُضن أو يسير. إنَّها هدنة المترجم، استراحته المؤقَّتة ومنطلقه إلى محطَّة أخرى.

يُقال أحياناً: إنَّ المترجم (وازن للكلمات)، بشيء من الاستخفاف أو التهكُّم، ولكنَّ ذلك لا ينبغي أن يجعله متردّداً في أسلوب عمله؛ ولا بدَّ فعلاً أن يضعَ أمامه ذلك الميزان بكفَّتيه، وأن يجري مقاراناته الدائمة، في الأسلوب والحجم والفكرة، أن يكتشف تلك اللوينات الطفيفة في الدلالة، لكي يقدِّم نصّاً حقيقيّاً يتمرأى فيه الأصل على قدر الإمكان.

كلُّ هذا لا يتعارض مع تثبيت المصطلحات الارتكازيَّة في النصّ، وعدم تبديلها بهدف الزخرفة، ممَّا يفقد النصَّ جريانه الموضوعيّ وإشاراته الصحيحة.

من ناحية أخرى، لا يمكن للترجمة أن تكون عملاً قسريّاً نجبر أنفسنا على القيام به، ولا واجباً شكليّاً، ومهمّة صعبة انتدبنا أنفسنا لها أو كلّفنا بها غيرنا؛ ففي هذه الحالة، نقدِّم

عملاً لا روح فيه، بعيداً عنَّا، عملاً مسفسفاً ومفكّكاً.

ينبغي أن يكون الهدف من العمل الترجميّ البحث عن مسرَّات معيَّنة نريد أن نجعل صديقاً أو جماعة أو جمهوراً يشاركنا إيَّاها؛ فتلك المتعة في قراءة نصّ أجنبيّ تتجاوز الفرد لكي تحثّه على نقله إلى الآخرين؛ فهو يطمح إلى نقل متعة فكريَّة أو فنيَّة إلى أوسع محيط ممكن. ولئن كان هذا الوسيط غير طامح في دخيلة نفسه إلى مضاهاة المبدع نفسه فلعلَّه يحاول أن يصنعَ من نصِّه الجديد ما يجعله جديراً بذلك المبدع وإبداعه.

إنَّ غاية المترجم هي أن يجعل القارئ يردّد بعفويَّة وطيبة خاطر ما ورد في ترجمته، مثلما نردِّد شِعراً خارقاً، أو قولاً مغرياً، يرجعان كالصدى، ويضجَّان في الفكر والحساسية.

بهذا الصدد، لا يكون البيان كلّ شيء؛ فهناك تطلب آخر من المترجم، لعلَّه يحسن تحقيق بعض الجوانب منه. إنَّه الدخول إلى أجواء النصّ. هذا لصيق كما نقول بأسلوب الكاتب، ففي العادة لا ينقل الكاتب إلى القارئ أفكاراً فحسب، بل شكلاً من الصياغة تميّزه عن غيره. ونعرف القول: الأسلوب هو الإنسان، وإذ تحكم النصّ طريقة الكاتب في التعبير، تحكمه كذلك الفكرة والموضوع اللذان يعالجهما بطبيعة الحال.

إذا كان النصُّ منتمياً إلى تلك العائلة التي تُعنى بنقد الموضوعات مثلاً، فلا نجد غالباً أسلوباً واحداً متعارفاً عليه عموماً، بل على العكس، أشدّ الأساليب اختلافاً وتنوّعاً؛ فهناك النصُّ الذي يضعك كاتبه في جوٍّ احتفاليّ، أو ارتساميّ، ويريد أن تحسَّ الخطورة والجدّيَّة، وحتَّى شيئاً من الرهبة يوحي بها الموضوع الذي يكتنفه السرّ أو الغموض؛ فهو غوص في هذا الإبهام والاستغلاق، وفي المسائل التي تشغل الفلسفة والتأمُّل، بل والبحث العلميّ الرّشيد.

وهناك النصُّ الوضعيّ الدّقيق، حيث لا تمرُّ كلمة إلَّا وقد اختيرت بعناية فائقة...

ويتطلَّب الأمر، إذاً، ألَّا يحرِّف المترجم شيئاً، أو يخطئ، أو كما كان يقال: يخون النصّ، ففوق رأسه دوماً يسلّط سيف (ديمقليس): «المترجم خائن للنصّ».

المطلوب، إذاً، بصورة عامَّة، أن يتوارى المترجم خلف النصِّ، في الكواليس، وأن يترك المسرح للكاتب؟ ولكن هذا التواري لا يمكن إلَّا أن يكون نسبيّاً، فلا بدَّ، على فترات، من أن يستشفَّ القارئ حضور المترجم، على أنَّ هذا الحضور لا يكون مصطنعاً، وذلك باستخدام لغة خاصَّة مثلاً تميّز المترجم كونه كاتباً له أسلوبه وطريقة تعبيره؛ فالإسراف في إظهار التمايز عن الكاتب قد يبعد المترجم عن جوهر مهمّته، ويدخله في نطاق التصرُّف غير المقبول بالنصّ.

أمَّا النصُّ الروائيُّ، فغالباً ما يكون متعدِّد الأصوات التي يتقدّمها أو يهيمن عليها صوت الروائيّ نفسه، سارد الحكاية، قبل أن يقنعنا أنَّ شخوصه التي سوف يبتدعها

ويحرّكها، ويجعل الحياة تدبّ فيها هي كائنات موجودة في زمان ومكان معيَّنين، وتصبح مهمّته أكثر صعوبةً حين يختلق التمايز فيما بينها، وفيما بينها وبين ذاتها، في المواقف والسياقات والطقوس المختلفة... فهذه الشبكة مطلوب من المترجم أن يدخل إلى حلقاتها ويألفها، وفي الغابة، أو الدغل الكثيف، تخزه أشواكها، ويحسّ أنفاسها ورطوبتها إلخ.... ويصبح مسكوناً بفكرة مفادها: نقل الأجواء التي عاشها إلى النصّ الآخر الذي لم يولد بعد. ينتابه قلق وارتعاشة ثقة ويقين. ولكنَّه يخمِّن أنَّ كلَّ شيء يبدأ من القراءة فعلاً؛ فيأخذ بملازمة النصّ، ونقل وحداته، فيتسلَّل الارتياح إلى نفسه، ويعيد القراءة مرَّة أخرى لما وضعه على الورقة البيضاء التي تتراقص عليها كلماته، حتّى يحسَّ ذلك الرضا المشوب بالحذر، متوجّساً بُعد التشابه، وربَّما الغرابة... مثل انكسار الضوء في الماء الصافي؛ فالشكل الغاطس في الماء هو امتداد للشكل الذي ضلَّ في الهواء، وليس هو تماماً، في نظر الرّائي الذي قد يغفر له هذا الانحراف على أن يكون طفيفاً.

أمَّا أكثر التحديّات خطورةً فهي ترجمة الشِّعر؛ فلطالما كان هناك مَن يقول بتعذُّرِ هذه الترجمة تعذُّراً كاملاً، في مقابل مَن يجد إمكاناتٍ معيّنة لمثلِ هذه الترجمة، ويصرف النظر عن المتطلّبات المهمّة التي تجعل الترجمة ممكنة، ومنها أنَّ الموسيقا سوف تغيب، أو لا يبقى منها شيء يذكر، وأنَّ اختيار اللغة الشعريَّة ليس بالأمر السهل، وإذا ما وُجد فسيكون مغايراً للإيحاءات والإشارات والتأثيرات التي يتميَّز بها النصُّ الأصليُّ.

إنَّ الأفكار التي يتيسَّر نقلها تبقى أمراً يمكن تحقيقه، وهي ما تضفي شيئاً من الشرعيّة على الترجمة، أمّا النغميّة الداخليّة فلا بدَّ أن تتأثَّر بصورة سلبيّة في النّص المترجَم، وإذا ما توافرت بنوع من المحاكاة فلسوف يكون فيها اصطناع غير مُحبَّب، وحتَّى منفِّرٌ أحياناً، أمَّا عن التصرُّف فهذا شيءٌ يجب تحاشيه، لأنَّ المترجم لا يشرح ولا يفسِّر النصَّ الشعريَّ، بل يحاول نقله بكثير من الدقَّة. وهنا، تحضرنا ثنائيَّة – الدقَّة والجمال، فأيُّهما سيكون على حساب الآخر، وأيّ منهما ستكون له الغلبة، وأيّ حدودٍ لا بُدَّ من رسمها بين هاتين الصفتين، وأيّ توازنٍ يتعيَّن إقامته في ما بينهما؟

مع كلِّ هذا، ومع الجهد المبذول للإتقان ومراعاة الأمانة، تمرُّ لحظات يتعثَّر فيها العمل، ويصبح المسير صعباً ومتقطعاً، ولعلَّ السببَ يرجع أحياناً إلى فقدان التواصل الحميم مع روح الأصل؛ فقد بيَّن الكثيرون من مُنظّرِي الترجمة، ومنهم: (فاليري لاربو) أنَّ قراءات عديدة للنصّ الذي نُحبُّه ونستمتع به هي شروط لا استغناء عنها لرغبة في النقل جامحة، إذ يُعاد إنتاج النصّ في لغة جديدة، مُفعمَة بالحياة، ومترابطة فكرا ًوشكلاً وإيحاءات.

إنَّ طرق الترجمة المبدعة محفوفةٌ بالمخاطر، وتقع على حبلٍ مشدودٍ ورفيع، في حلبة الأدب والفكر، وبلوغ مستوى عالٍ من الإبداع الترجميّ غاية لا يقدر عليها إلّا الذين لا يتهيَّبون المسالك الوعرة والمتعرِّجة في نتاجات المبدعين الذين يستحقّون أن يُبذلَ الجهد

لتعميم إبداعاتهم على أوسع نطاقٍ ممكن.

مراجع البحث

1- Valery Larbaud ،De La Traduction ،Edition.١٩٤٦

2- Georges Mounin ،ProblèmesThéoriques de La Traduction ،Edition.١٩٧٦

3- Jean-Louis Cordonnier ،Traduction et Culture ١٩٩٥ ،LAL .